الفارس الجميل

بقلم : علي أحمد باكثير

بيبافايد

- ٣ -

وردت الأنباء من الشام بأن عبد الملك ابن مروان ارسل البعوث والسرايا ليكونوا طلائعه فى غزو العراق وانه قد اعد لذلك جيشا هائلا وصمم على الا يعود الى الشام فى هذه المرة الا بعد أن يفتح العراق . فلم يكد مصعب يصدق ما سمع ، اذ كان يعتقد دائما أن عبد الملك لا يمكن ان يكون جادا فى قتاله هو . فطالما ركب اليه من قبل بجيشه وهو يعلن انه سيغزو العراق ويقاتل مصعب بن الزبير ، فاذا هو يغير على بعض الخوارج فى طريقه ثم لا يلبث أن يكر راجعا الى الشام معتذرا بأن الشتاء ببرده ووحله قد حال دون مواصلة السير الى مصعب .

وكذلك كان مصعب يفعل اذ يتوجه بجيشه نحو الشام للقاء عبد الملك فى الطريق فلا يلبث أن يعود قافلا الى العراق حين يبلغه ان عبد الملك قد كر راجعا الى الشام .

ولكن ابراهيم بن الأشتر كتب اليه من الكوفة يؤكد له عزم عبد الملك ، وينهى اليه أن بعض رجاله قد تسللوا الى الكوفة ليدعوا أهلها اليه ، وانه قبض على نفر منهم فاستنطقهم فاقروا له فلم يبق عند مصعب شك فى أن الأمر جد .

واراد أن يستقدم المهلب بن ابى صفرة ، وكان يقاتل الخوارج بفارس ، ليكون معه فى حرب الشام ، ولكن أهل البصرة ابوا عليه ذلك وقالوا له :

- لا نسير معك ونترك البصرة هدفا للخوارج وقد بلغوا سوق الاهواز ، ما لم تترك المهلب يقاتلهم دوننا ، فانا لا نأمن أن ينقضوا على البصرة اذا راونا قد تركناها معك .

فانصاع مصعب لرايهم .

ولما اعتزم المسير الى الكوفة اصرت سكينة بنت الحسين على أن تصحبه حتى تكون الى جانبه وهو يقاتل عبد الملك .

قال لها :

- انى اشفق عليك يا سكين من مشاق الطريق واهوال القتال .

قالت له :

- لا عليك يا مصعب منى فانى انتظرت هذا اليوم من زمن طويل . وعسى أن تهزم هذا المروانى فتسير الى الشام وتملكها مكانه .

ولم يشأ مصعب ان يقول لها انه انما يسير للقائه مكرها ، وانه لو استطاع ان يتجنب قتاله لفعل ، وان امله فى الانتصار عليه اذا حاربه قليل ، فقد احس أن أهل العراق لن يقاتلوا معه باخلاص ونية منذ ساء رايهم فى اخيه عبد الله بن الزبير . فلو قال لها شيئا من ذلك لطفقت تلومه وتعنفه على ما اضاع من الفرصة من قبل اذ لم يستمع لرايها فى الاستقلال عنه من عهد بعيد .

ولكنه اجتهد أن يصرفها عن المسير معه بشتى الأسباب ما خلا السبب الصحيح وهو قلة رجائه فى النصر واشفاقه عليها مما قد يمسها من عواقب الهزيمة .

فلما اصرت على رغبتها فى المسير معه لم يسعه الا ان يوافق .

وكان الاحنف بن قيس فى طليعة الرجال الذين قدموا معه من البصرة، ولكنه كان مريضا فما لبث ان اشتد به المرض وثقلت عليه العلة فارسل الى مصعب فعاده فوجده يجود بنفسه : ـ

ـ يسوءنى والله يا مصعب ان تجدنى كما ترى وأن تحول هذه العلة دون ما ابغى من الخروج معك ونصرتك .

ـ لا بأس يا ابا بحر فانى لن اخرج الا بعد ان تقوم من علتك ان شاء الله .

ـ هيهات يا مصعب فما اراها الا النهاية .

فبكى مصعب وهو يقول :

ـ نفسى فداؤك يا أبا بحر .

ـ كفكف دموعك يا ابن اخى واصغ الى ما اقول قبل ان يقبض لسانى فلا استطيع الكلام .

ارسل الى المهلب ليكون ظهيرا لك فى هذا الوجه .

ـ قد علمت راى هؤلاء فى ذلك .

ـ ارسل اليه ولا تبال بهم فانى لا اثق بهؤلاء ولا آمن ان يغدروا بك اذا حمى الوطيس .

ـ انى اخشى من الخوارج على البصرة .

ـ امر الخوارج اهون من امر عبد الملك فان غلبته كان يسيرا عليك ان تخرجهم من البصرة بعد ذلك . اما ان غلبك . .

وثقل لسان الاحنف فلم يستطع أن يتم كلمته .

وحزن مصعب لموت صديقه الاحنف حزنا شديدا ، فقد كان امين سره والملجأ الذى يلجأ اليه كلما حز به امر عظيم ، او وقع فى مشكلة لا يدرى وجه الراى فيها ، فيجد عنده ما يشاء من حل سليم وتوجيه حكيم .

وتشاءم من موته فى تلك الفترة الحرجة وذلك الوقت العصيب وهو يتجهز لقتال اهل الشام وقد قلت ثقته باشياعه من اهل العراق منذ كان من سوء معاملة اخيه عبد الملك لهم فى الحجاز ما كان .

وهم أن يعمل بوصيته فى استقدام المهلب بن ابى صفرة ولكنه اشفق أن يثير ذلك قيامة اهل العراق عليه وليس لديه من يشد ازره عليهم ويعينه فى اخضاعهم لأمره بعد ان مات ذو الكلمة المسموعة بينهم والراى المطاع .

* * *

وقضى مصعب بعد موت صديقه الاحنف اياما وليالى وهو فى بحران من الهم لا يستطيع له دفعا ولا يجد منه خلاصا . واستبدت به الحيرة فلا يدرى ماذا يأتى وماذا يدع ، وتردد فى كل شىء فلم يستطع ان يعقد عزمه على شىء : حتى لقد نازعته نفسه أن يعدل عن المسير لقتال عبد الملك ويعلن ذلك للناس .

لقد أيقن أن امر اخيه عبد الله بن الزبير الى ادبار ، وان نجم عبد الملك بن مروان الى سطوع ، وان قصارى ما يستطيع عمله هو اذا ما خرج لقتال عبد الملك وانتصر عليه أن يؤجل هذه النهاية الى حين ، ولكنها آتية لا ريب فيها ان عاجلا او آجلا ، فماذا يدفعه الى القتال فى سبيل قضية خاسرة ؟

ولكن هل يستطيع حقا ان يتراجع عن المسير لقتال عبد الملك ؟ وماذا يكون موقفه من اخيه وموقف اخيه منه ؟ ثم ماذا يكون من امر عبد الملك نفسه ؟ أيرتد قافلا الى الشام اذا بلغه عدول مصعب عن لقائه وذلك بعيد ، أم يمضى قدما حتى يقرع عليه أبواب العراق ؟ واذا فماذا يفيد تراجع مصعب ان فعل؟

لقد فقد مصعب كل أمل الا املا واحدا يترائى له من بعيد .. املا يكتنفه الشك من كل جانب ، ولا يجرؤ مصعب ان يحدث به احدا ، لأن أحدا لا يمكن أن يقتنع به ، بل ربما سخر منه اذا سمع به ، وان مصعبا نفسه لقليل الثقة فى امكان ان يتحقق ، فقد جعلته الأيام سيء الظن بالناس قليل الايمان بأن فيهم بعد من يلتزم قواعد المروءة والشهامة كما يلتزمها هو ، ويراها قطعة من نفسه وجزءا من تكوينه . وانه ليقلب فكره فى الناس من قريب وبعيد وبين كبير وصغير فلا يجد هذه الشمائل فى احد منهم بالصورة التى يجدها فى نفسه بحيث يستطيع ان يتعامل معه على كلمة سواء اللهم الا أن يكون ابراهيم بن الاشتر .

ولكن هذا الأمل هو الأمل الوحيد الذى بقى أمامه فعليه أن يبلوه ليرى ما يكون من أمره ، وان يغلب حسن ظنه بنفسه على سوء ظنه بالناس . واستدعى مصعب ابراهيم بن الاشتر فلما خلا به قال له :

ـ اتدرى يا ابراهيم لماذا دعوتك الساعة ؟

ـ لخير ان شاء الله .

ـ اجل لأرى رايك فى امر رجوت ان يجعل الله لنا فيه مخرجا مما نحن فيه .

ـ وماذاك يا مصعب ؟

ـ احسبنى قد حدثتك ذات مرة بما كان بينى وبين عبد الملك بن مروان من صداقة قديمة وود متين .

ـ نعم .

واسررت اليك ايضا اننا ظللنا برهة يتقى أحدنا حرب الآخر ، فكان يخرج لقتاله ثم يكر راجعا من نصف الطريق .

ـ نعم نعم ولكنه فى هذه المرة لن يرجع يا مصعب عن قتالنا حتى يفتح العراق او نفتح نحن الشام . أوتشك بعد فى ذلك يا مصعب ؟

ـ كلا يا ابراهيم ما أشك فى ذلك ، ولكن سنح ببالى ان لو مضيت اليه سرا دون ان يعلم احد بمذهبى ، حتى اصل اليه فى بعض الطريق ، فازعم لرجاله اننى رسول مصعب بن الزبير اليه ، فاذا خلوت به كلمته وناشدته أن يرجع من حيث جاء فنحقن بذلك دماء المسلمين ان تراق فى غير طائل .

ـ ويحك يا مصعب أوتظن ان ابن مروان يستجيب لك ؟

ـ قد يستجيب فانه ـ ما علمت ـ لرجل خير .

ـ كلا يا مصعب ان عبد الملك الذى كنت تعرفه فيما مضى غير عبد الملك اليوم .. ان الذى كان يدعوه الناس حمامة المسجد قد انقلب اليوم الى كبش بنى مروان .. كبش نطاح وايم الله يا مصعب !

ـ أعلم ذلك يا ابراهيم ولكنه لن ينسى ما بيننا من الود القديم .

ـ أتدرى يا مصعب ما آفتك ؟ آفتك أنك تقيس غيرك بمقياس نفسك.

ـ وأىباس فى ان اجرب هذا السبيل معه ؟ ان لم يقبل استعنت الله عليه فقاتلته وقد أعذرت .

ـ خبرنى يا مصعب أتشفق منه عليك أم تشفق منك عليه ؟

ـ اشفق على الخلة التى بيننا أن تقضى عليها حرب لا طائل فيها لأحد .

ـ لعلك يا مصعب لم تعد ترى اخاك احق بالخلافة من عبد الملك ؟

ـ بلى ان أخى لأحق بها منه .

ـ مهما يكن رايك فى اخيك فان عبد الملك يرى نفسه أحق بالخلافة من اخيك ، فلن يضيع فرصة تتيح له الغلبة عليه من أجل صداقة قديمة بينك وبينه أو ود متين .

ـ اذن يكون لى معه شأن آخر .

ـ لعلك تعود الينا من عنده فتخرج بنا لقتاله ؟

ـ نعم .

ـ من أين لك انه لا يغدر بك فيبقيك اسيرا عنده ؟

ـ كلا يا ابراهيم لن يغدر بى عبد الملك .

ـ ماذا يمنعه ؟ لقد غدر بابن عمه عمرو بن سعيد الأشدق .

ـ لكنه لن يغدر بى أبدا . ربما لا يستجيب لما أدعوه اليه ولكنه لن يغدر بى أبدا . محال أن يصنع بى ذلك .

ـ محال ؟

ـ ويلك ما خطبك يا ابن الأشتر . كنت أحسب انك تعلم من شرع المروءة اكثر من هذا .

ـ ما شأن مروءتى فى هذا الأمر ؟

ـ هب انك كنت مكان عبد الملك أفكنت تغدر بى على هذه الصورة ؟

ـ بربك لا تقسنى بعبد الملك . فشتان ما بينه وبينى .

ـ معذرة يا ابراهيم . حقا انك لأفضل منه وأعظم مروءة ولكنه هو ايضا لا يمكن أن ينحدر الى هذا الدرك.

ـ ماذا يحملك على أن تتجشم اليه الطريق بنفسك ؟ ابعث اليه بكتاب منك أو ابعث اليه رسولا يشافهه بما تريد .

ـ كلا يا ابن الأشتر لن يكون ذلك مثل حضورى بنفسى اليه .

ـ والله يا مصعب لولا ما أمنتنى على سرك لكتبت الى اخيك عبد الله بنيتك هذه مع عدوه ليخلعك ويولى غيرك مكانك .

ـ حاشاك يا ابراهيم ان تفعل ذلك.

وطار الحوار بينهما على غير اتفاق، وأدرك ابن الأشتر الا سبيل الى اقناع مصعب بالعدول عن عزمه ، فتركه وما اختار لنفسه دون أن يجد عليه فى ذلك ، بل احس برثاء له وشفقة عليه واكبار لهذه الشمائل فيه التى يندر وجودها فى الناس وهى بعد غير غريبة على نفسه .

ـ أما اذ صممت على ذلك فدعنى ارافقك اليه لعلك تحتاج الى .

ـ كلا يا ابراهيم بل ابق أنت هنا مكانى حتى أعود من عنده وقد هيأت أنت الناس للمسير .

ـ اذن فاحرص على سرك هذا لا تفشه لأحد ولا لأهلك . وسأزعم للناس انك انطلقت الى جهة الأهواز لتتفقد مواقع المهلب بن أبى صفرة مع الخوارج حتى تأمن جانبهم قبل أن تمضى لقتال عبد الملك .

وسر مصعب من رأيه هذا فاحتضنه وقبل ما بين عينيه وهو يقول :

بأبى أنت يا ابراهيم وامى . والله لا أدرى ماذا كنت أصنع لو لم يؤيدنى الله بك .

ولما دخل مصعب على سكينة واخبرها بعزمه على زيارة الاهواز انكرت عليه ذلك بشدة وقالت :

ـ كيف تترك عدوك الاكبر يطوى القفار اليك وتمضى لتتفقد حرب الخوارج ؟

ـ لأطمئن على موقف المهلب هناك فامضى للقاء عبد الملك دون أن يشغلنى عنه شاغل فطفقت تناقشه فى ذلك نقاشا طويلا حتى هم أن يخبرها بحقيقة عزمه لو لم يتذكر ما اتفق عليه مع صديقه ابن الأشتر .

* * *

وتسلل مصعب ذات ليلة فخرج من مدينة الكوفة سرا دون ان يعلم بمسيره أحد ، ولم يكن معه غير ابن الأشتر الذى انطلق معه فرافقه مسافة فى الطريق لا يريد ان يتركه الى ان عزم عليه مصعب أن يعود فودعه وكر راجعا الى الكوفة حيث دخلها قبيل الفجر .

وانطلق مصعب على جواده الأشهب يطوى القفار طيا ، لا يلوى على شىء ويواصل الليل بالنهار ، لا ينزل عن جواده الا ريثما يريحه قليلا فيعلفه ويسقيه ، ثم يستأنف السير حتى قطع فى خمسة أيام ما يقطع عادة فى اثنى عشر يوما .

ولم يبطىء من مسيره الا حينما لمح النيران تضىء من بعيد على مساحة كبيرة من الأرض ، فأدرك أنها نيران جيش الشام قد عسكر فى ذلك المكان ، فتنفس الصعداء وقال : الليلة ألقى خليلى عبد الملك !

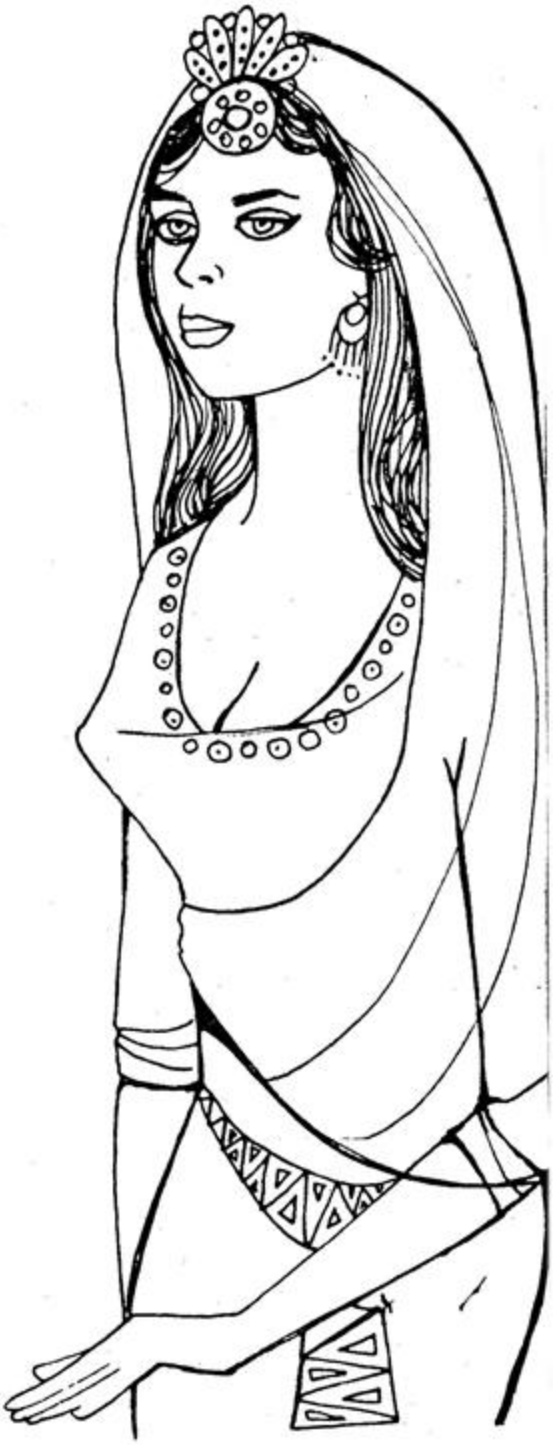

وخفق قلبه لقرب لقاء صديقه القديم ، وطفق يستعيد ذكريات صباه معه ، واخذت مدينة الرسول تتمثل فى ذهنه حيث كانا يلعبان فى دروبها صبيين صغيرين ، ويتسابقان على جواديهما فى ضواحيها يافعين ، ولم يقطع عليه حبل ذكرياته الا فارسان من طلائع جيش الشام قد برزا له من عرض الطريق كانما انشقت عنهما الأرض فالقى عليهما التحية فردا عليه .

ـ من الفارس ؟

ـ رسول من مصعب بن الزبير الى عبد الملك بن مروان .

ـ اين الرسالة ؟

ـ أمرت ان اسلمها الى اميركم يدا بيد .

فاخذا يتفرسان فى وجهه فى ضوء القمر ثم نظر احدهما الى الآخر كانما يتشاوران فى أمره .

ـ هل لكما ان توصلانى الى اميركم ؟

ـ نعم هلم معنا .

فعطفا جواديهما وسارا معه احدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، وما لبث الثلاثة ان انضم اليهم عدد كبير من الفرسان فاحاطوا به من كل جانب . وكلما اقتربوا من المعسكر زادت نيرانه لمعانا ، فظهرت على ضوئها الخيام العديدة المنصوبة على ذلك السهل الواسع . فأيقن مصعب صدق ما بلغه من ان عبد الملك قد صمم هذه المرة على الا يرتد عن العراق حتى يفتحه .

ولما بلغوا اول المعسكر ترجلوا عن جيادهم ، فترجل مصعب مثلهم ، ودنا مصعب من كبيرهم فاسر اليه ان الرسالة سرية وان اميرهم عبد الملك بن مروان ربما لا يريد ان يذيع امرها فى رجال المعسكر فأومأ براسه موافقا والتفت الى احد رجاله قائلا :

ـ خذ جواد هذا الرسول فاحفظه عندك حتى نطلبه منك .

واخذ بيد مصعب فمشى به بين الخيام ، فراى اكثر الجنود فيها قد آووا الى مضاجعهم لينـاموا ، وبقى قليل منهم بين قائم او قاعد يهيىء فراشه للنوم ، الى ان بلغ به خيمة حمراء فخمة بين خيمتين كبيرتين ادرك من هيئتها وروائها انها لعبد الملك وحاشيته . فوقف به أمام احدى الخيمتين ، فاذا رجل ربعة احمر اللون يخرج منها ليستقبله كانما كان على ميعاد معه ، فعرفه مصعب من أول وهلة . انه محمد بن مروان أخو عبد الملك فلما سلم عليه مصعب دهش الرجل فوضع يده فى مقبض سيفه .

ـ لا ترع انا رسول مصعب بن الزبير الى عبد الملك بن مروان .

ـ بل انت مصعب بن الزبير .. لا تحاول ان تخدعنى فقد عرفتك .

ـ لا خداع يا محمد . انا مصعب وانا رسول مصعب .

ـ مرحبا بك يا ابن الزبير .. ادخل .

ودخلا الخيمة فاذا فيها رجلان آخران كانا قاعدين فنهضا لما رأياه .

ـ هلم يا خالد .. هلم يا عبد الله هذا مصعب بن الزبير .

فدهشا قليلا ثم اقبلا يصافحانه ومحمد بن مروان يقدمهما اليه .

ـ هذا خالد بن يزيد بن معاوية وهذا عبد الله بن يزيد بن معاوية .

ـ وجعل محمد وخالد يرحبان به ويوسعان له فى المجلس . أما عبد الله فقد ظل صامتا ينظر اليه نظرة فيها مكر وغدر ثم استأذن وخرج .

ـ اين عبد الملك فانى فى شوق اليه؟

ـ هـــلا قلت اين امـير المؤمنين يا مصعب ؟

ـ كلا يا محمد ان امير المؤمنين فى مكة .

ـ كذبت بل هو هنا فى الخيمـــة المجاورة .

فتبسم مصعب وهو يقول :

ـ هلا اخبرتموه بمجيئى ؟

ـ قد علم امير المؤمنين بمجيئك .

ـ اتظن انه هـــو الذى بعثنى ؟ لا والله لقد حضرت دون علم منه !

ـ انا اعنى امير المؤمنين اخى .

ـ وانا اعنى امير المؤمنين الصحيح.

قال خالد وهو يضحك مما يسمع كأنه مسرور بذلك :

ـ لا تتلاحيـا .. لكل منا امـــير المؤمنين .

وارتفع صوت أبح من جهـة باب الخيمة يقول : ـ

ـ مهلا يا خالد .. ليس للمسلمين غير امير واحد .

ـ هو الذى فى مكة .

ـ بل هو الذى بين يديك يا مصعب!

واذا صاحب الصوت هو عبد الملك ابن مروان قد دخل فى عباءة من الخز الفاخر وخلفه عبد الله بن يزيد . فوقف عبد الملك باسطا يديه كأنه يدعو مصعبا الى عناقه ، فوثب مصعب اليه فتحاضنا وتعانقا طويلا لا يكاد ينقطع حتى يعود اليه من جديد ، فى صورة أصـــدق واشد حرارة ، حتى شعر الثـــلاثة الآخرون بشىء من الحرج أن يروا هذا المشهد امامهم دون ان يدروا ماذا ينبغى عليهم أن يفعـــلوا . واحسوا كذلك بضآلة شأنهم ازاء هذا الموقف الفريد الذى لم يخطـــر لهم على بال ، ولم يستطيعوا له فهما ولا تفسيرا . وقد ضاعف شعورهم هـــذا ما بدا من عبد الملك من تناسيهم وتجاهلهم جملة واحدة حتى كأنما كانوا غير موجودين هناك .

وما تخلصوا من هذا الحرج الا حينما أومأ اليهم عبد الملك بالخروج من الخيمة وتركهما وحدهما ، فتسللوا خارجين الا ما كان من عبد الله بن يزيد ، فقد تلبث قليلا كأنه غير مطمئن الى انفرادهما فى الخيمة ، حتى نظر اليه عبد الملك نظرة قاسية لم يسعه بعـــدها الا أن ينسحب .

قال مصعب : ـ

ـ احسب هذا الفتى يخشى منى عليك .

قال عبد الملك :

ـ أجل انه لا يعرف ما بينى وبينك يا مصعب .

ولم يكد يتم كلمته حتى عاد عبد الله ابن يزيد ثانيا فصاح عبد الملك فى وجهه:

ـ ويلك يا ابن اخى . ماذا تريد ؟ ألم أصرفك من عندى الساعة ؟

فتمتم عبد الله قائلا :

ـ انه يتقلد سيفه يا امير المؤمنين فهلا اذنت لى أن آخذه منه ؟

فصاح به عبد الملك :

ـ بل دعه ويلك ما أنت وذاك ؟

وهم مصعب أن يلقى بسيفه اليـــه فمنعه عبد الملك قائلا :

ـ دع عنك هذا يا مصعب ، والله لو غدر بى الناس جميعا ما غدرت بى انت .

وخرج عبد الله بن يزيد ، فنظـــر احدهما الى الآخر وانفجرا يضحكان .

ـ هلم بنا نجلس يا مصعب ونتحدث فانى فى شوق اليك والى حديثك .

ـ هل دار بخلدك قط يا عبد الملك اننى سأجىء هكذا وحدى اليك ؟

ـ نعم توقعت أن تلقانى ولكن فى غير هذا المكان ، الا ان تكون قد خرجت بجيشك من الكوفة فهو فى بعض الطريق وسبقته الى ؟

ـ لا والله يا عبـــد الملك . ما زال جيشى بالكوفة وانما جئت اليك وحدى دون أن يعلم بمسيرى أحد .

ـ أما هذا فلم يخطـر على بالى ، وانه لعمل لا يأتى مثله غير رجل واحد فى العرب هو أنت .

فضحك مصعب وهو يقول :

ـ واخشى الا يقدره حق قدره غير رجل واحد فى العرب هو عبد الملك بن مروان .

واستضحك عبد الملك قليـــلا وهو يقول :

ـ صدقت يا مصعب .

ثم لم يلبث ان اطرق واجما .

وران عليهما صمت غريب ، واخذ مصعب فى اثناء ذلك ينظر الى عبد الملك كأنه يريد أن يستشف ما يعتمـــل فى نفسه .

ـ ما خطبك يا عبد الملك ماذا يدور الآن فى فكرك ؟ بحيـــاتى عليـــك الا ما أخبرتنى .

فتنهد عبد الملك وهو يقول :

ـ لقد الم بى خاطر سوء .

ـ قالت لك نفسك الأمارة : هذا قد جاء وحده دون ان يعلم احد من قومه فلو ..

وابتدره عبد الملك قائلا :

ـ أجـــل هو ذاك ولكن حاشا لله يا مصعب لا ينبغى ان اخيب املك فى صديقك القديم .

وضحك الاثنان وصفا ما بينهما مرة اخـرى .

قال مصعب :

ـ أليس من نكد الدنيا يا عبد الملك أن تضطر لمحاربتى واضطر لمحاربتك ؟

ـ بلى والله ولكن الملك عقيم .

ـ افلا نبرم بيننا عهدا الا يقـاتل احدنا الآخر ما حيينا ابدا ؟

ـ قد علمت يا مصعب انى لست اقاتلك على شيء ، وانما اقاتل عبد الله اخـاك .

ـ بل تقاتلنى اذ تقاتل أخى .

ـ اخلع اخاك واعلن نفسك مكانه فستجدنى اكف عنك واقاتله معك .

ـ معاذ الله ان افعل ما ليس لى بحـق .

ـ انت احق والله بهذا الأمر منه.

ـ ومنـك ؟

ـ لا بل تفضلنى فى اشياء وافضلك فى اشياء . ولكنا سنبرم بيننا حينئذ العهد الذى اقترحت .

ـ هيهات انك لتعلم ان عبد الله بن الزبير افضل منى ومنك .

ـ بأى شيء يفضلنى ؟

ـ أبوه الزبير بن العوام حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو افضل من أبيك مروان بن الحكم ، وامه اسماء بنت ابى بكر الصديق ، وهى افضل من امى وامـــك ، وهو اول مولود ولـد للمسلمين فى المدينة عقب الهجرة .

ـ كل هذا حق ولكنه هو لا يفضلنى

ـ بل هو اتقى لله منك . لقد كنت تلازم المسجد قديما حتى لقبوك حمامة المسجد ولكنك ما لبثت ان شغلك الملك عن صلاتك وفقهك . اما عبد الله اخى فلم يشغله شيء عما عود عليه نفسه من صلاته وتهجده .

ـ ولكنه بخيل والبخيل لا يسود ابدا .

ـ لو شاء ان يتكرم على أصـــحابه وانصاره بما فى بيت مـــال المسلمين لفعل ، ولكنه اتقى لله من ذلك .

ـ الا تعلم يا مصعب انه بغيض الى الناس واننى احب اليهم منه ؟

ـ الناس لا يبغضونه وانما يبغضون الحق ، وهم لا يحبونك انت وانما يحبون المال الذى تشترى به ضمائرهم .

وسكت عبد الملك قليلا ثم قال :

ـ ان كان عبـد الله بن الزبير كما زعمت ، وكنت أنا انازعه هذا الأمـر بغير حق ، ففيم عرضت على أن نتوادع؟

ـ انما عرضت ذلك ابقاء على الود الذى بينى وبينك .

ـ الود آثر عندك من الحق ؟

ـ نعم .. أوليس كذلك عندك ؟

ـ لا ادرى والله أيهمـــا اختـــار لو خيرت . ولكن الله لم يحوجنى الى ذلك ، اذ كان فى مقـدورى لو وافقت انت ، ان اجمع الحق والود فى ناحية واحدة .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ اعنى ما قلته لك من قبل : ان تخلعه وتعلن الأمر لنفسك فأقاتله هو ولا اقاتلك .

ـ بل اردت يا غدر أن تتغدى به ثم تتعشى بى ؟

ـ لا والذى عقد بيننا هـــذه الخلة لا اتعرض لك حينئذ أبدا .

ـ وانا والله لا أخون اخى ابدا .

وصمت عبد الملك قليلا ثم قال :

ـ ان كنت تراها كبيرة عليك فعندى ما هو افضل لك من ذلك .. اعتزل ولاية اخيك واقم عندى بالشام وسأقطعك بها ما تشاء من أرض تعيش فيها عيشة رغدا مع اولادك ونسائك فاستشاط مصعب غضبا .

ـ ويلك لقد ساومتنى على الدنية يا عبد الملك . المثلى تقول هذا القول ؟ آه لو غيرك قالها !

فطفق عبد الملك يهدىء غضبه ويلاطفه ويعتذر له .

ـ سامحنى يا مصعب فوالله ما أردت ان اغضبك . ماذا اصنع ؟ انت الذى دعوتنى الى امر يصعب تحقيقه فاردت ان التمس له سبيلا يحققه على وجه من الوجوه .

ـ أتأذن لى اذن يا عبد الملك ؟

ـ أين تذهب ؟

ـ أعود الى رجالى .

ـ كلا والله لتقيمن عندى بضعة أيام فانى ما قضيت الشوق منك .

ـ اتريد أن تحجزنى عن رجالى لئلا اخرج بهم اليك ؟

ـ لا والله لأدعنك تذهب اليهم حينما تشاء .

ـ حين لا يكون بينك وبين الكوفة الا قليل ؟

ـ لا ترع .. سنقيم فى هذا المكان ما بقيت معنا ، ولن نبرحه الا بعد أن تغادرنا فما رايك ؟

فأطرق مصعب قليلا كأنه يفكر فيما سمع ثم قال :

ـ لا بأس اذن .

ـ جزاك الله خيرا يا اخي . من يدرى لعلنا نستطيع غدا أن نتفق على شيء وصفق عبد الملك فدخل بعض رجاله فأمرهم أن يدعوا له محمد بن مروان .

فلما حضر قال له :

ـ هذا ابن عمك مصعب بن الزبير قد عهدت به اليك لتنزله معك وتكرمه جهدك . واكتموا حقيقته عن الجميع وازعموا لهم أنه رسول مصعب .

ـ سأفعل يا امير المؤمنين .

ـ اذهب يا مصعب مع محمد وسنلتقى غدا ان شاء الله .

* * *

وقضى مصعب ثلاث ليال فى معسكر عبد الملك كان يجالسه فيها صباحا ومساء ، ولا يفترقان الا عند القيلولة ظهرا وعندما يأويان للنوم ليلا . وكان يحضر مجلسهما الأمراء الثلاثة محمد وخالد وعبد الله أو بعضهم ولكن كثيرا ما كانا ينفردان فى المجلس فلا يحضره معهما احد .

وكان جل حديثهما يدور حول ذكرياتها القديمة فى مدينة رسول الله ، منذ كانا طفلين الى أن بلغا مبلغ الرجال، وحول معارفهما من الناس فى تلك الحقبة الغالية من حياتهما من بقى منهم ومن مات .

وكانا فى ذلك كأنما يمتحان من بئر واحدة على التعاقب بينهما ، فاذا تذكر أحدهما أمرا من الأمور أو شخصا من الأشخاص انبرى الآخر يذكر من التفاصيل ما يكمل به الذكرى التى استحضرها صاحبه . وكانا يجدان لذلك لذة عظيمة كأنما يستعيدان فلذا عزيزة من عهود الصبا وأيام الشباب .

بیبی فابر

وتكرر النقاش بينهما حول المهمة التى حضر مصعب من أجلها من وجوه شتى وزوايا مختلفة غير انه كان ينتهى بينهما دائما بالخلاف .

وذات مرة قال له عبد الملك :

ـ والله يا أخى انى لشديد الحرص على الا تنصرف من عندى الا على شىء. ولكنك تسد الأبواب كلها ما خلا بابا واحدا لا سبيل الى ولوجه .

فأجابه مصعب :

ـ بل هو الباب الوحيد الذى يمكن أن نلجه على سواء بيننا لا غضاضة فيه على ولا عليك حتى يجعل الله لنا مخرجا من الأمر كله .

قال عبد الملك .

ـ انى مصارحك الآن بأمر لا ينبغى ان اخفيه عليك فعدنى الا تثور غضبا اذا سمعته .

ـ لك على ذلك .

ـ اننا لسنا سواء يا مصعب فى الرجال والعدة . عندى أهل الشام وهم أطوع لى من بنانى وليس فيهم خائن ولا منافق ، وعندك أهل العراق وهم أهل شقاق ونفاق ، فالنصر مضمون لى عليك .

ـ كلا ان النصر بيد الله ، ورجالى ليسوا كما ذكرت .

ـ ان اخاك عبد الله أعرف بهم منك حين قال لوفدهم اليه :

وددت لو أن لى بكل عشرة منكم رجلا من أهل الشام صرف الدينار بالدرهم .

ـ ليست الحرب بالأقوال ياعبد الملك ولكن بالفعال .

ـ اعلم اذن أن كثيرا من وجوه أصحابك قد كاتبونى يعرضون انضمامهم الى .

ـ ان فعلوا فسيخونونك كما خانونى . ولى عنهم غنى بالمخلصين الثابتين وهم كثير .

ـ ان شئت يا مصعب سميتهم لك واطلعتك على رسائلهم لتصدقنى .

ـ كلا لا ينبغى لك أن تفعل ، ولا ينبغى لى أن أسمع . ليس ذلك من المروءة يا عبد الملك .

وفى اليوم الثالث حين تهيأ مصعب للمسير وخلا به عبد الملك ليودعه ناشده مصعب أن يستجيب لدعوة السلام سينقلب الى الشام ذلك العام عسى أن يجعل الله لهما مخرجا فى مستقبل الأيام . وتأثر عبد الملك من كلمات صديقه التى قالها فى صدق واخلاص حتى ترقرق الدمع فى عينيه فتوهم مصعب انه سيجيبه الى ما طلب .

ولكن عبد الملك لم يزد على أن الطف له القول ووعده بالنظر فى هذا الأمر .

وتعانق الصديقان لحظة أطلقا فيها لدموعهما العنان ثم تجلدا ومسح كل منهما دمعه . قال عبد الملك وهو يشيعه الى باب الخيمة .

ـ لولا خوفى أن ينكشف سرك يا مصعب لخرجت اشيعك الى بعض الطريق .

فشكره مصعب على بره وتكرمته ثم خرج الى حيث اعد له جواده فركبه وانطلق .

(تمت)